دِلالةُ النَّصبِ والرَّفعِ فِي الأسماءِ (٢)

دراسةٌ في (مشكل إعراب القرآن)

بقلم الدكتور سعدالدين إبراهيم المصطفى

وجاء في قولِهِ تعالى: ﴿وقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هذِهِ الأَنعامِ خالِصةٌ لِذُكُورِنا﴾[١] (خالصةً) بِالنَّصبِ علَى الحالِ من المضمرِ في قَولِه: (في بُطونِ) في قراءة قتادة[٢]. وخبر " ما " (لِذُكُورِنا)[٣]. وعن المطوعي (خالِصُهُ) برفع الصاد والهاء، وبحذف التنوين، على أنَّه مبتدأ، و(لِذُكُورِنا) الخبر. والجملة خبرُ الموصول[٤].

إنَّ قِراءة الجُمهورِ بالرَّفعِ أبلغُ في النفسِ وأكثرُ وضوحاً فهي للدلالةِ على ثبوتِ هذا الأمرِ في نفوسِ المتكلمينَ، لأنَّهم جَعَلُوها خالصة للذكورِ، وحرَّموها على الأزواجِ، ودلَّ على ذلِكَ وُجُودُ التاءِ في آخِرِها لِلمُبالَغةِ كالهاءِ في " علَّامة " و" نسَّابة "، وفِي الرَّفع دِلالةٌ أُخرَى فَقد جَاءَت حَملاً علَى مَعنَى " ما "، لأنَّ المقصُودَ هُنا بِما فِي بُطونِ هذِهِ الأنعامِ الأجنَّة.

وفِي تحليلي لِلنَّصِّ نَجدُ إشارةً إلَى قَصدِ المتكلِّمِ هنا وهُم جماعةٌ، فقد أرادُوا جَعلَ ذلِكَ الأمرِ ثابتاً في ذكورِهِم ونَفَوهُ عن أزواجِهِم فالرَّفعُ أقربُ إلَى السِّياقِ، إذِ المعنَى يَتَّضِحُ بجعلِ ما في بُطُونِ الأنعامِ للذكورِ. وفِي اختيارِ النَّصبِ تحوُّلٌ في التركيبِ لا يَنأَى بالآيةِ عن الغايةِ المقصودةِ بعيداً، فالمتكلِّمُ قَصَدَ الموقِعَ الإعرابيَّ بِناءً علَى المعنَى الوظيفيِّ للاسمِ المتقدِّم. فالنَّصبُ علَى الحَالِ جَاءَ مِن الضَّميرِ المرفُوعِ في قَولِهِ: (فِي بُطُونِ)، وخبرُ المبتدأِ الَّذِي هُوَ " ما " (لِذُكُورِنَا)، ولا يَجُوزُ أنْ تَتَقَدَّمَ الحالُ فِيها علَى العامِلِ

---

[١] الآية ١٣٩ من سورة الأنعام.

[٢] المحتسب في تبيين شواذ القراءات والكشف عنها: لأبي الفتح عثمان بن جني (ت٣٩٢هـ)، تحقيق: علي النجدي ناصف، و د.عبد الحليم النجار، ود. عبدالفتاح شلبي، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية بالقاهرة، ١٤٢٤هـ-٢٠٠٤م، ١:٢٣٢. وهذه قراءة ابن عباس، والأعرج وقتادة، وسفيان بن حسين. وقرأ الكسائي والأخفش بالرفع.

[٣] مشكل إعراب القرآن ص١٧٩.

[٤] إتحاف فضلاء البشر في القراءات الأربعة عشر: أحمد بن محمد بن عبد الغني البنا الدِّمياطي (ت١١١٧هـ)، تحقيق: عبد الرحيم الطرهوني، دار الحديث، ١٤٢٠هـ-٢٠٠٩م، ١: ٥٥١.

وهذا عِندَ سيبويهِ إذا لم يكنْ مُنصرِفاً، كأنْ تقولَ: زيدٌ قائِماً في الدارِ، لم يجز، وهذا غيرُ منصرفٍ. وقد أجازَهُ الأخفش.

ومِن ذلك أيضاً قوله تعالى: ﴿قالُوا مَعذِرَةً إلى ربِّكُم ولعلَّهُم يتَّقُونَ﴾[٥]. فقَد ذَهَبَ سيبويهِ إلى قراءةِ الجمهورِ بالرَّفعِ للدلالةِ على أنَّ هذا حالُهُم، " لأنَّهُم لم يُريدُوا أنْ يَعتذِروا اعتذاراً مستأنفاً من أمرٍ لِيمُوا علَيهِ، ولكنَّهُم قيلَ لهم: " لِمَ تعِظونَ قوماً "؟ قالوا: موعِظتُنا مَعذِرةٌ إلى ربِّكم "[٦]. ولو قالَ رجلٌ لرجلٍ: معذرةً إلى الله وإليك من كذا وكذا يُريدُ اعتِذاراً لِنَصبٍ ، وهذِهِ مِن دَقائِقِ سيبويه ولَطائِفِه الَّتِي لا يُلحَقُ فِيهَا "[٧].

والحُجَّةُ فِي قِراءةِ الرَّفعِ أنَّه قَصَدَ أحدَ أمريْنِ: الأوَّلَ: مَوعِظتُنا إيَّاهُم معذِرةٌ فَتَكُونُ خَبَراً لِمُبتَدأٍ مَحذُوفٍ، والثَّاني: يُضمَرُ قَبلَ ذلِكَ ما يرفَعُه. وأيَّاً كانَ الأمرُ فإنَّ قراءة النصبِ على أنَّها مفعولٌ مُطلَقٌ، أو مَفعُولٌ لأجلِهِ أو غَيرَ ذلِكَ، وهذا ما ذَهَبَ إليهِ أهلُ النَّحو ، إنَّما جَاءَتْ جَواباً عن سُؤالٍ مِن اللهِ – سُبحانَهُ وتَعالَى– لَهُم هو: لِمَ لم تَعِظُوهُم؟ فلَعلَّهُم بِالوعظِ يتَّعِظُونَ. أو يَكونُ جوابُهم بقولِهِم: مَعذِرةً إلى ربِّك، أي: لمعذرةٍ إلى ربِّكُم[٨].

وفي تحليلي لهذِهِ الآية الكريمة تَجِدُ أنَّ إرادة المتكلِّمِ لمعنى من المعاني يُغيِّرُ موقِعَ الكلِمةِ نصباً على المفعوليَّةِ أو رفعاً على الابتِداءِ. فهذِهِ الإرادةُ كانَتْ سبباً في إثباتِهِ مَفعُولاً ومَصدَراً مَنصُوباً أُحِلَّ محلَّ فعلِهِ، وجاءَ بدلاً منه مرَّة، كما كانَتْ سبباً في عدِّهِ خبراً لمبتدأ مقدَّر في نيَّةِ المتكلِّمِ مرَّة أخرى، فكلَّما تدخَّلَتْ إرادة المتكلِّمِ بالتغييرِ في رتبةِ المفعولِ تقديماً أو تأخيراً ظَهَرَتْ في تقديرِ العنصرِ المحذوفِ فيقدَّرُ فِعلاً وما بعدَهُ منصوبٌ على المفعوليَّة، أو يقدَّرُ مبتدأ، وما بعدَهُ خبرٌ له.

وهذا التَّلوينُ بينَ التعبيريْنِ–الجملة الاسميَّة والفعليَّة–المستفاد من تحليلِنا لهذِهِ الآيةِ الكَريمةِ إنَّما يدلُّ على لفتةٍ أسلوبيَّة جَعَلَتْ البلاغيين يبنونَ قاعدتَهُم المهمَّة في الفرقِ بين التعبيرِ بالاسمِ والفعلِ،

---

[٥] الآية ١٦٤ من سورة الأعراف. قرأ عيسى وطلحة والكسائي وحفص عن عاصم بالنصب ، وقرأ الجمهور بالرفع.

[٦] الكتاب ١: ٣٢٠.

[٧] إعراب القرآن للنحاس ص٣٥٨ .

[٨] البيان في غريب إعراب القرآن: لأبي البركات عبدالرحمن بن أبي الوفا الأنباري (ت٥٧٧هـ)، تحقيق: محمود رأفت الجمال، القاهرة، دار التوفيقية للتراث، ٢٠١٠م، ١: ٣٣٨.

فقرَّروا أنَّ التعبيرَ بالفعل يدلُّ على التجدُّدِ والحدوثِ، بينَما يدلُّ التَّعبيرُ بالاسميَّة على الثباتِ والاستمرارِ، يَستوي في ذلِك المظهَرُ والمضمَرُ تقديراً.وأبانَ عبدالقاهر الجرجاني (ت٤٧١هـ) عن هذا السرِّ اللطيفِ في الفرقِ بينَ التعبيرَيْنِ بأنَّ: " موضوعَ الاسمِ على أنْ يُثْبِتَ بِهِ المعنى للشَّيءِ مِن غيرِ أنْ يَقتَضِيَ تَجدُّدُهُ شيئاً بعدَ شيءٍ، وأمَّا الفعلُ فموضُوعُهُ علَى أنَّهُ يَقتَضِيَ تَجدُّد المعنى المثبتِ بِهِ شيئاً بعد شيء"[٩].

وإذا كانَ مُعظمُ النحويينَ قد فسَّروا المخالفةَ بينَ النَّصبِ والرَّفعِ تبعاً لِتقديرِ المحذوفِ فِي كلٍّ منهُما من حيثُ الجملةُ الاسميَّةُ والفعليَّةُ، وقاسُوا عليه معنى المفاضلة بين السَّلامَيْنِ في قولِهِ تعالى: (قالُوا سلاماً قالَ سلامٌ)[١٠]. فالمخالفة في إعراب السلامين في الآية مرَّده فائدة بلاغية إضافة إلى موقعها الوظيفي، فانتصاب " سلاماً " فجاءت لعدم تكلُّم القوم بشيء، فيحكي كما الأمر بوضوحه، فهو معنى ما تكلَّمت به الرسل.

وَعِندَ السُّهيليّ (ت٥٨١هـ) وَرَدَ السَّلامُ الأوَّلُ مَنصُوباً: " لأنَّه لم يَقصِدْ الحكاية، ولكنَّه جعلَهُ قولاً حسناً وسمَّاه سلاماً، لأنَّه يؤدِّي معنى السلام في رفع الوِحشةِ ووقوعِ الأنسِ، وحُكِيَ عن إبراهيمَ- علَيهِ السَّلامُ- قولُهُ فَرُفِعَ بالابتداء. وحصَلَ من الفرقِ بينَ الكلامَيْنِ: في حكايةِ هذا ورَفعَهُ، ونَصَبَ ذلِكَ إشارة لطيفة وفائدة شريفة، وهو أنَّ السَّلامَ من دينِ الإسلامِ، والإسلامُ مِلَّةُ إبراهيم-عليه السلام-وقد أُمِرْنا بالاتِّباعِ والاقتِداءِ بِهِ، فَحَكَى لَنَا قَولَهُ، ولم يحكِ لنا قولَ أضيافِهِ، إذ لا فائدة في تعريف كيفيته، إنَّما الفائدة في تبيينِ قولِ إبراهيم وكيفية تحيتهِ، لِيَقَعَ الاقتِداءُ بِهِ، وأخبر عن قولِ الأضيافِ على الجملة لا على التفصيل، وعن قول إبراهيم-عليه السلام-مفصلاً محكيَّاً لهذه الحكمة "[١١].

أَستَطيعُ القولَ: إنَّ مردَّ هذِهِ الفَائِدةِ إنَّما يَعُودُ إلَى تَوجِّي مَعنًى مِن مَعانِي النَّحو، لأنَّ " قلت " وما يتصرف عنها قد وَقَعَتْ في كَلامِ العربِ على أنْ يُحكَى بِها ما كانَ كلاماً لا قولاً. وبناء علَى ذلِكَ وَرَدَ الأوَّلُ منصُوباً في جانِبِ الأضيافِ، لِيُنبِئَ عن ترجمةِ قَولِهِم بمعناه علَى تَقدِيرِ: قَالُوا قَولاً سَلاماً أيَّاً

---

[٩] دلائل الإعجاز: عبدالقاهر بن عبدالرحمن بن محمد الجرجاني(ت٤٧١هـ)، قرأه وعلَّق عليه محمود محمد شاكر، القاهرة، مكتبة الخانجي، ١٤٠٤هـ-١٩٨٤م، ص١٧٤.

[١٠] الآية ٦٩ من سورة هود.

[١١] نتائج الفكر في النحو: أبو القاسم عبدالرحمن السهيلي (ت٥٨١هـ)، د.محمد إبراهيم البنا، منشورات جامعة قار يونس، ١٩٧٨م، ص٤١٥.

كَانَ لَفظُهُ، إذ لا فائِدةً فِي تَعريفِ كَيفِيَّتِهِ، وَوَرَدَ كَلامُ إبراهيمَ-علَيهِ السَّلامُ- فِي رَدِّهِ مَرفُوعاً علَى سَبيلِ الحِكايةِ بِنصِّهِ ولفظِهِ، لِيَقَعَ الاقتِداءُ بِهِ.